

فكاهات

روايت

وفاء الجميل (١)

كان في فرنسا منذ سبعين سنة تاجر حرير يدعى مازورياني اتاح له حسن الحظ ان تزوج بفتاة كانت بائنتها (دوطتها) ستين الف فرنك فاضاف هذا المبلغ الى رأس ماله فالتسعت تجارتها واصبح عنده نحو مئة مستخدم بين ذكور واناث وبعد ان اتت على زواجهما سنة رزق منها بنتاً سماها كلير . والظاهر ان الرجل ما تزوج بامرأته الا لاجل مالها كما يفعل كثيرون في هذا الزمن فلما اقتر له ثغر النعيم شغف بحب فتاة من اللائي يشتغلن في معمله فوقع الخصاص بينه وبين زوجته وانتهى الامر بهما الى المحاكمة فصدر الحكم بانفصالها عنه وبرد بائنتها اليها فاقبلت على ابنتها تربيها حتى اذا بلغت الثامنة عشرة من العمر زوجها بمحام شاب يدعى دوقرجه ببائة قدرها عشرة آلاف فرنك . وبعد سنتين من زواجهما اي في سنة ١٨٥٤ توفيت الوالدة على حين بغتة وكان صهرها في الجزائر فقدم الى باريز ليستولي على تركتها فلم يجد عندها سوى اربعة آلاف فرنك ولم يعلم كيف ذهبت بقية مالها فاستولى على ما وجدته وباع امتعتها ولم يستبق منها

(١) ملخصة عن الفرنسية بقلم خليل افندي الجاويش

الاكتساباً للصلاة كانت جلدة محلاة بالفضة فاستصحبته تذكراً لزوجته وقفل راجعاً الى الجزائر ولما وصل اليها وجد زوجته قد وضعت بنتاً كانت آية في الجمال فسُرَّ بها غاية السرور وسماها ادلين

اما مازوري اي ابو زوجته فانه تزوج بحبيبتة بعد طلاقه بزمان قصير فولدت له بنتاً رباها في مهده الدلال والترف وعندما بلغت رشدها قرنها بصير في يدعي كاليه تبلغ ثروته نحواً من مليون فرنك واعطاها بأئنة قدرها مئتا الف فرنك . وبعد ذلك اعتزل تجارته وابدل ثروته باوراق مالية وأخذ الى الراحة مسلماً زمامه الى زوجته فاتفقت مع صهرها الصيرفي واودعت عنده مال زوجها حتى اذا توفي لم تستطع ابنته الاولى زوجة المحامي ان تطالب بشيء من تركته فكانت سيئة البخت من الوجهين كما كانت اختها زوجة الصيرفي ميمونة الطالع من جميع الوجوه . وزادت مصيبتها بانها فقدت زوجها بعد ميتين غير مخلف شيئاً فقدمت باريز ووضعت ابنتها في دير للراهبات لتتعلم فيه ما تستعين به في مستقبل حياتها . ولما صار عمر الفتاة خمس عشرة سنة اخرجتها لانها لم تعد تستطيع ان تنفق عليها وأدركت الفتاة حقيقة حالها فعكفت على الاشتغال بما تعلمته من صناعة التطريز فكانت تحصل معاشها ومعاش والدتها وسكنتا كلتاهما في بيت حقير

ولما كان شهر يناير من سنة ١٨٧٢ مرضت والدته أدلين مرضاً شديداً فكانت هذه تشتغل الى ما بعد نصف الليل على نور مصباح ضعيف لتدفع اجرة الطبيب وثمان الادوية فوق اجرة البيت وثمان حاجات المعيشة ولم يكن عليها من الملابس ما يدفع عنها عادية البرد القارس فما مضى عليها شهر حتى

ذهب السهر بنضارة شبابها واذبل ورد خديها واستحكمت حلقات الضيق عليها وانذرها صاحب البيت بالطرد ان لم تدفع متأخر الاجرة وكانت قد رهنّت حليها وحلي والدتها وانفقت قيمة الرهن علاوة على كسبها فباتت في ضيق لا تدري الى الخروج منه سبيلاً . وفي ذات ليلة افاقت والدتها وهي تطرز فكاد فؤادها يذوب حناناً عليها لما رأت من نحو لها واصفرارها وبعد حديث بينهما ملؤه الحب والاشفاق اشارت الوالدة الى الابنة ان تكتب الى رجل في مدينة الهفر يدعى يرار وهو صاحب سفن عديدة وذو مال كثير تستدين منه مئتي فرنك وقالت لها انا لا اعرف هذا الرجل ولكن اذكر ان والده اوشك ان يفلس في احدى السنين لولا ان اقرضته والدتي مبلغاً كبيراً فاذا كتبت اليه فربما ذكر الجميل وأمدنا بشيء نستعين به في هذه الكربة . ففي الصباح بعثت اليه الفتاة بكتاب موقع عليه باسم والدتها واقامت تنتظر جوابه على احر من الجمر

ومن غرائب الاتفاق ان المسيو يرار المشار اليه كان صديقاً حميماً للمسيو كالياء الصيرفي زوج خالة ادلين فكان يودع عنده زوائد ماله وكان الصيرفي قد رزق بنتاً سماها ارنستين وولداً سماه غستايف . وكان ليرار ولد وحيد يدعى ادمون كان مقيماً بباريز منذ ستة اشهر لعهد ما نرويه وقد خطب له والده ابنة كالياء صديقه ووضعته عنده يتعلم فن التجارة . واتفق ان الرجل قدم باريز قبيل ان بعثت اليه ادلين برسالتها ونزل في بيت صديقه فوصلته الرسالة وهو هناك فعند ما اطلع عليها تعجب كثيراً لانه لم يكن يعلم ان لامرأة الصيرفي اختاً فقيرة تعيش مع ابنتها من التطريز .

وفي وقت الغداء لحظ اهل المنزل انه قاق الفكر فسألوه فاخبرهم بامر الرسالة فاضطرب الصيرفي واصفر وجه امرأته وقالت نعم نعرف هذه المرأة التي كتبت اليك ولكن يسوءنا ان تكون من افراد اسرتنا لانها سيئة السيرة فهي لا تستحق منك احساناً ولا قرضاً ومع ذلك فانا اتولى هذا الامر عنك فكن مستريحاً . وفي المساء بعثت احد خدامها الى منزل اختها فاخبرها بما كان ودفع اليها ورقة مالية قيمتها خمسة وعشرون فرنكاً فقالت نحن لسنا بشحاذين فعد الى مولاتك وقل لهما اننا في غنى عن صدقتها

وبعد ايام اتى الشرطي وقال لهما ان صاحب البيت شكاهما الى المحكمة وطلب حجز الامتعة وبيعها لاستيفاء الاجرة المتأخرة عليهما واخراجهما من المنزل ثم كتب جريدة باسماء الامتعة وفي جملتها كتاب الصلاة الذي اشرنا اليه في صدر الكلام . فقالت ادلين وهي تبكي ان هذا الكتاب تذكاري عزيز علينا فاتركه لنا . فقال اني مأمور بحجز كل ما اجده عندكما فاذا اردتما استعادة الكتاب فما عليكما الا ان تشترياه يوم بيع الامتعة بالمزاد العام فان ثمنه لا يتجاوز خمسة فرنكات . وفي اليوم التالي انتقلت المرأتان الى غرفة حقيرة رطبة في اطراف المدينة وسارت ادلين الى سوق المزاد ومعها خمسة فرنكات لتشتري كتاب الصلاة . وكان هناك شاب حلو الحيا يدور بين الحوانيت ليلتاع بعض الصور القديمة ولما هم بالخروج رأى ادلين تحاول الاختباء وراء خزانة كبيرة وقد اخذ منها الاتقباض والخجل فوقف يتفكر فيهما مفتوناً بجماها الباهر وأدبها الظاهر كأن شذا العفاف والطهر يفوح من روض حسنها ولما نودي على الكتاب برزت من مخبأها واخذت تزيد مع الزائدين

حتى اذا اربنى الثمن نصف فرنك على الخمسة التي بيدها تنهدت من كبدٍ
حرّى وسارت باكيةً حزينة . وكان الفتى واقفاً ينظر فاقترّب من التاجر
الذي ابتاع الكتاب واسترشد الى حانوته ثم راح يعدو وراء الفتاة وعند ما
اقترّب منها تلطف في محادثتها واطهر لها ما خامر فؤاده من الحزن لرؤيتها
تبكي وقال اني عرفت سبب بكائك فجئت استعطفك في تأدية خدمة لك
ارجو أن تكون مقبولة . فاستأنست به لما رأت من ظرفه واحتشامه وسردت
له مسألة الكتاب وسبب بيعه مع امته بيتها وشرحت له حال والدتها فاستدل
على البيت فقهمت مراده وقالت نحن لا نرضى ان يزورنا شخص غريب
ولا تقبل احساناً من احد . فقال ليس هذا مقصودي ولكني اريد مساعدتك
بوجه آخر فقد فهمت منك ان صناعتك التطريز والدتي تقدّم باريز بعد
ايام لشراء ملابس وربما احتاجت الى اشياء مطرّزة فتشترىها منك وبهذه
الوسيلة اكسبك شيئاً من المال مقابل عملك . فشكرته واعطته عنوان
منزلها فلما قرأ اسم والدتها قال اني اعرف هذا الاسم فهل انت نسيبة الصيرفي
المدعو كالياء . فقالت هو صهري زوج خالتي . فاطرق مفكراً ثم قال
ليست والدتك هي التي كتبت رسالة الى رجلٍ بالهفر يدعى بيرار تطلب
منه ان يقرضها مئتي فرنك . فاجابت نعم وحكت له قصة الرسالة وقالت
ان خالتي هي التي منعت هذا القرض . وكانت الفتاة قد اقتربت من منزلها
فاستأذنت في مفارقة الفتى وسارت الى والدتها وأخبرتها بأن الكتاب قد بيع
لغيرها وسردت لها حديث الفتى معها . فزجرتها والدتها وقالت لها اياك بعد
الآن أن تخاطبي الشبان في الطرقات فانهم يمثل هذا الكلام يخدعون

الفتيات وقد اخطأت كثيراً بارشاده الى منزلنا . فاستغفرتها ووعدتها ان لا تعود الى مثل ذلك في المستقبل

اما الشاب فانه ترك الفتاة وهو يفكر في هذه العبرة ولا بد ان يكون القارئ قد فطن الى ان هذا الشاب هو ادمون ولد بيرار وخطيب ارنستين واليك ما فعله بعد الذي تقدم ذكره . فانه سار الى حانوت الرجل الذي اشترى كتاب الصلاة وابتاعه منه بمئة فرنك لان الرجل طمع عند ما وجده راغباً في شرائه وظن انه من طبعة قديمة ثم سار الى منزله واخذ يقلب صفحات الكتاب فعثر فيه على ورقة مطوية فتناولها وفتحها فاذا تاريخها سنة ١٨٤٢ فلما قرأها استهلت عيناه بالبكاء وقال لو عرف والدي ما في هذه الورقة لما حبس احسانه عن احسن الى والده وخلصه من ورطة الافلاس . وفي اليوم التالي ذهب الى احد مجلدى الكتب واوصاه ان يغير جلدة الكتاب وبعد ثلاثة ايام بعث به الى والدته ادلين مع رسالة يلّمع فيها الى التقائه بالفتاة ويقول انه لا يريد ان يعرفهما بنفسه ولكنه يسعى لهما بمنفعة جزيلة

وكانت والدته ادمون قد أتت الى باريز فانزلها عنده ومنعها من زيارة آل خطيبته واخبرها بسبب انحرافه عنهم وقال انه يريد ان يفسخ خطبته الاولى ويتزوج بالفتاة الفقيرة التي مال اليها . فأخذت تنصحه بالعدول عن هذا الرأي فازداد اصراراً عليه وقال لها سوف تعلمين من هي خطيبي الجديدة وما هي اخلاقها وصفاتها اما الآن فالذي اطلبه منك هو ان تذهبي الى منزلها وتوصيها بعمل ما تريد من الثياب المطرزة وتؤدين اليها الاجرة

مقدماً وتزعمين انك آتية من لدن مدام مونثيل التي تشتغل الفتاة لحسابها .
فقلت وكيف عرفت هذه الامور كلها وأنت لم تر الفتاة الا مرة واحدة .
فقال اني اكرتيت غرفةً مقابل غرفتها وفي كل يوم اراها من وراء الستار
واتنسم اخبارها من الجيران وقد علمت أنها اطهر بنت في باريز . فلما رأت
والدته شدة ميله اليها اتقادت لرأيه وسارت في اليوم التالي الى منزل المراتين
وهي لابسة ملابس بسيطة فلما وقعت عينها على أدلين عذرت ولدها على
حبه ثم عرضت طلبها واختارت ما حلا لها من أشكال التطريز التي أرتها
الفتاة اياها وكانت اجرة ما كلفتها عمله الف فرنك فدفعت اليها نصف المبلغ
سلفاً ثم قالت واني ارجو ان تسرع في انجاز العمل لاني لست من اهل
باريز بل انا آتية لا صرف فيها بضعة ايام . فارتعشت ادلين وادركت والدتها
معزى العبارة فأرسلت ابنتها الى السوق ولما خلت بالسيدة سألتها هل لك
اولاد . فأجابتها لي ولد وحيد هو اليوم مقيم بباريز . فقالت او ليس ولدك
هو الذي ارسلك الينا . فقالت نعم لانه رثى لحالكما وحملته المروءة على
مساعدتكما . فقالت بل هو قد تعشق ابنتي واكرتيت غرفة امام منزلنا وقد
رأيتُهُ مراراً يطل من النافذة وعند ما يقع بصر ابنتي عليه يحمر وجهها
وتضطرب حواسها فالاليق بك وبني اما ان نمنع هذا الامر واما ان نبت
رأياً ملائماً لنا جميعاً . فقالت السيدة لقد رأيت منك ومن ابنتك فوق ما
سمعت وسوف افعل ما يلهمني الله . ثم ودعتها وانصرفت وقصت على ولدها
كل ما سمعته ورأته وقالت له يظهر ان الفتاة قد شغفت بك كما شغفت
بها ولكن بقي ان يرضى والدك بأن تترك خطيبتك وتتزوج بمن احببتها . فقال

ليس اسهل عليّ من اقناعه بذلك ودخل الى غرفته وعاد اليها بالورقة التي وجدها في الكتاب فدهشت لدى قراءتها . فقال وقد علمتُ ايضاً ان حماة المسيو كالياء قد اتفقت معه على حرمان والدته ادلين من ميراث والدها بطرق لا اذكرها الا امام والدي . ثم ذهب الفتى واكثرى منزلاً في افضل احياء باريس وفرشه بأحسن الرياش وارسل والدته الى غرفة خطيبته فأتت بها وبوالدتها الى المنزل الجديد بحجة ان بينهما رطب مضر بالصحة فعندما وصلتا الى المنزل بهرت ابصارهما بما رأتا فيه من الرياش الفاخر ومعدات الرفاهية وعينت والدته ادمون لكلٍ منهما غرفتين . وبعد قليل دعتهما الى تناول الغداء وقبل ان يؤتى بالطعام قالت لنصبر قليلاً فاني انتظر مدعوّاً ثالثاً وما قالت هذه العبارة حتى انفتح باب الردهة ودخل ادمون فتناولت والدته يده وقدمته الى والدته ادلين وقالت لها هذا ولدي ايتها السيدة وخطيب ابنتك من بعد رضاك . فتأثرت ادلين من هذا المشهد الغير المنتظر واستلقت على كرسيتها وقد اوشكت ان يغمر عليها واخذت والدتها تبكي وتقول ما الذي اراه يا الهي أفي حلم انا ام في يقظة . فقالت مدام يرار ان اسرتنا عليها لوالدتك حقوق عظيمة وها نحن نفي دين المعروف والمودة وولدي قد احب ابنتك فهو يرغب في اتخاذا زوجة له . وكان ادمون قد جلس الى جانب الفتاة وجعل يحادثها كأنها تعرفه منذ سنين واخبرها في اثناء الحديث بامر الكتاب وبما وجده فيه من الكتابة فكان منظر الجماعة من اللطف ما تتصوره العين وتحنو عليه العواطف

ولما طال غياب ادمون عن بيت خطيبته انفذ والدها جاسوساً يستطلع

طلع حاله فعاد يخبره بما رآه وسمعه فاستشاط غيظاً وبعث يخبر صديقه
والد الفتى بانحراف ولده عن جادة الامانة وحسن السلوك . وفي ذلك المساء
كانت والدته مدعوة الى العشاء في بيت الصيرفي فاستصحبته ولدها
ولكن الجماعة لم يفتحوها بالامر غير ان ارنستين اخذت بيد ادمون وسارت
به الى الحديقة وظهرت له انها عرفت سره من اوله الى آخره واخذت
تلومه وتعنفه فاعترف لها بحقيقة الحال واخبرها ان التي احبها ليست باجل
منها ولكن دين المعروف قضى عليه ان يختارها زوجة له دونها على انها
ليست غريبة عنها لانها بنت خالتها . ثم اعطاها عنوان المنزل الذي اسكنها
فيه مع والدتها واخبرته هي بان والدها كتب يشكوه الى والده . وبعد
ثلاثة ايام اتى المسيو بيرار الى باريز ونزل بيت صديقه ولما جلسوا للغداء
سردوا له مشكلة ابنه وتعاون الرجل وامراته وحماته على الطعن في عرض
ادلين وتقبيح سيرتها وسيرة والدتها . وبينما هم في الحديث اغتتمت ارنستين
الفرصة وركبت عربة وسارت الى منزل ادمون بشارع لكسمبور ودفعت
الى البواب رسالة برسم مادام بيرار وعادت قاصدة منزل ادلين وكان
ادمون هناك فدخلت على الفتاة ووالدتها بحجة انها تريد ان تتعلم التطريز
عندهما ولم تعرفهما بنفسها فاتسع لها مجال الكلام وما زالت تستطرد من
حديث الى آخر حتى لم يبق للكتمان موضع فنهضت وألقت بنفسها بين
يدي ادلين وقالت انا بنت خالتك ارنستين فضمتها ادلين الى صدرها
وتعانقتا كلتاها تعانق الاحباء

وفي تلك اللحظة وفد غستااف شقيق ارنستين فقابله ادمون بمنتهى

الحفاوة والبشاشة فقال انا آتٍ لأدعوك الى المبارزة لانك نقضت عهدك
 وثلمت شرف اختي بفسخ خطبتك وتعشقت ابنة وجدتها في الشارع .
 فلاطفه ادمون وبالع في تسكين غضبه فما ازداد غشاقاً الا سباً وشتماً
 فامسكه ادمون بمخناقه وجذبه بعنف وللحال انفتح الباب وظهرت ارنستين
 فلما رأى شقيقته تراجع دهشاً وقال من اتى بك الى هنا . ثم اتت ادلين
 ووالدتها فتقدمت ارنستين وقالت لشقيقها ما خالتك وابنة خالتك فاستغفرها
 عما فعلت فصالحها خجلاً وطلب الصفيح منها ومن ادمون . وبعد لحظة
 دخل والد ادمون ثم دخلت والدته فتناولت الورقة التي وجدها ابنها في
 كتاب الصلاة ودفعتها الى زوجها وقالت له اقرأ رسالة والدتك فقرأها فاذا
 فيها أن مادام مازوريابي اقضت والده ستين الف فرنك وخلصته من
 الافلاس والعار وان والده لم يرد المال بل اكتفى بدفع فائدته واشترط ان
 يعطيها شيئاً من ارباح محله . فلما قرأ ذلك قال فنصف ثروتي اذا تخص ورثة
 مادام مازوريابي . فقالت زوجته وها ان وارثيه امامك فانا اقدم لك مادام
 دوقرجه وابنتها السيدة ادلين وهي التي احبها ولدك وهو يريد ان يقترن
 بها فادفع انت ما عليك من المال ودع ولدك يفي دين المعروف ويقوم
 بحق الجميل

وبعد شهر زُفّت ادلين الى ادمون في مدينة الهفرو وعاش مع امرأته
 ووالديه على اتم ما يشتهي من الهناء والمسرة وكان كل من سمع بقصته
 يقول هكذا يكون الوفاء وهكذا تكون العواطف والاخلاق